معاتبة النفس

موعظة فى توبيخ النفس ولومها

للإمام الغزالى

دار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر - والتحقيق - والتوزيع

شارع المديرية - أمام محطة بنزين التعاون

ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب ٤٧٧

دار الصحابة للتراث بطنطا
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
ش المديرية بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ .
ت : ٣٣١٥٨٧

[٢ / معاتبة النفس / صحابة]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله الذى اصطفى ﷺ .

أخى المسلم : راقب نفسك ولاحظها فى أقوالها وأعمالها ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وزن عملك قبل أن يوزن عليك وراجعها حين تنحرف ، أو تهم بشىء من الانحراف لتعيدها إلى الصراط ، وتقيمها عليه ، وتلزمها به وتعاتبها إن سعت بطيئة إلى الخير . لتفجر بها ينابيع كوامن الخير والبركة . وهكذا .

وبذلك تكون قد حاسبت نفسك ونصبت من نفسك قاضيًا وحارسًا يقظًا حذراً تمنعها من السوء وتدفعها إلى الطيب من القول والعمل .

واعلم أخى الحبيب :

أن لومك لنفسك ومحاسبتها لا تعنى مجرد المعاتبة واللوم فكن مثل التاجر الذى يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر فيه ، ثم يحاسبه .

فما بالك بتجارة رأس مالها المحاسبة وربحها الفردوس الأعلى ، فتدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيقه فى أرباح الدنيا .

أخى : ألا تجد نفسك تلوم وتقسو فى الحكم وتحصى على غيرك كل صغيرة وكبيرة خاصة إذا كنت مسؤلا ؟ فنفسك أولى أن تعاتبها وتُحصى عليها وتُؤدبها .

أخى لاتَنْسَ

أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها فكل يوم يمر لا يأتى مثله ، ما تكسبه اليوم رصيد لك غداً هاهو الإمام الغزالى يصحبنا ويقدم لنا الدواء لمعاتبة النفس .

أبو حذيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم (١) أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر (٢) إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن ذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوّامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك قال تعالى ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ [سورة الذاريات / ٥٥] وسبيله أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعذر بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها :

---

(١) بداية نص كلام الغزالى من كتابه الإحياء [٣٨٠/٤] .

(٢) الغمر : الغلبة

« يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقا .

أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار . وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب (١) .؟

فما لك تفرحين و تضحكين . وتشتغلين باللهو . وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟ . وعساك اليوم تختطفين أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا . ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ .

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب . ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس

---

(١) لأن العمر محدود مهما طال فموعده قريب .

يمكن أن يكون فيه الموت فجأة . فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة . ثم يفضى إلى الموت .

فمالك لاتستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** ﴾ ؟ ... [الأنبياء / ١]

ويحك يا نفس ! إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ؛ فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك ؛ فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ! .

ويحك يا نفس ! . لو واجهك عبد من عبيدك . بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه . ومقتك له (١) ، فبأى جسارة (٢) تتعرضين لمقت الله وغضبه . وشديد عقابه ؟ . أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات . جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه . فاحتبسى ساعة فى الشمس . أو فى بيت الحمّام(٣) . أو قربى إصبعك من النار . ليتبين لك قدر طاقتك .

---

(١) وبغضك له . (٢) شجاعة . (٣) دورة المياه .

أم تغترين بكرم الله وفضله . واستغنائه عن طاعتك وعبادتك . فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ؟ . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم . فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ؟ .

فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز . أو يسخر عبدا من عبيده ، فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ؟ .

أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها . وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس ! . ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة . فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك . ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[هود / ٦]وقال فى أمر الآخرة :

﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ [النجم / ٣٩] .

فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين (١) على طلبها تكالب المدهوش المستهتر (٢) ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر . ما هذا من علامات الإيمان .

لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ؟ !

ويحك يا نفس ! . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب . وتظن أنك إذا مت انفلت وتخلصت . هيهات (٣) . أتحسبين أنك تتركين سدى (٤) ؟ .

ألم تكونى نطفة من منى يمنى (٥) ثم كنت علقة فخلق فسوى ؟ ! ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ ؟ [القيامة/ ٤٠] فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك

(١) من شدة الحرص على الدنيا .
(٢) المدهوش : الذى ذهب عقله ، والمستهتر : المولع بالشىء .
(٣) كلمة تقال : لما يصعب مناله .
(٤) بلا حساب ولا عقاب .
(٥) وهو ما يتكون منه الجنى .

وأجهلك . أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ؟ . من نطفة خلقك (١) فقدرك . ثم السبيل يسرك . ثم أماتك فأقبرك . أفتكذبينه في قوله : ثم إذا شاء أنشرك ؟ .

فإن لم تكوني مكذّبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ . ولو أن يهوديًا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس (٢) وتخمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟ !.

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربًا لرميت ثوبك في الحال ، من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ .

أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها (٣) . وزقومها ومقامعها ، وصديدها وسمومها ، وأفاعيها وعقاربها ، أحقر

---

(١) ماء التناسل من الرجل والمرأة . (٢) الظن والتخمين .

(٣) القيد الشديد

عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل منه ؟ .

ما هذه أفعال العقلاء ، بل لوانكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك !!

فإن كنت يا نفس ، قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين (١) العمل والموت لك بالمرصاد . ولعله يختطفك من غير مهلة . فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة (٢) يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ .

إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا (٣) ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما

---

(١) التسويف : تأجيل الشيء والمماطلة فيه .

(٢) العقبة : الطريق غير الممهد الوعر الخاص بالجبال فلا حياة فيه ولا مرعى .

(٣) فلا عمل له والبطال صاحب الباطل .

يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه ، اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ! .

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلى ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟ .

هل له سبب إلا عجزك من مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ .

أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ .

هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه . فلا تكون الجنة قط إلا ومحفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين :غداً غداً ؟ .

فقد جاء الغد وصار يومًا ، فكيف وجدته ؟ . أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس . لا بل تعجزين عنه اليوم .، فأنت غداً عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة

كالشجرة الراسخة التى تعبَّد العبد (١) بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهوشاب قوى . فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين : ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك .

(١) وهو أن يؤجر العبد باقتلاعها ومأمور من الله بذلك

إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد (١)، ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا ، امتنع عليه شربه طوال العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة : أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضى شهوته فى الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة ـف يوم ؟.

ـميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل عذاب أهل النار . أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع

(١) تعنى الاستمرار الدائم طول الدهر .

العمر وإن طالت مدته .

وليت شعرى : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة . أو ألم النار فى دركات (١) جهنم ؟ . فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى .

أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك فى جميع ذلك بجميع الحيل .

---

(١) فالدرجات لأهل الجنات وهى لا على والدركات لأهل النار وهى لأسفل .

وبهـذا الجهل تستحـقين لقب الحمـاقة من رسـول الله ﷺ حيث قال : « الكيس (١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » (٢) .

ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تـغرك الحيـاة الدنيا ، ولا يغرنك بـالله الغرور ، فانظرى لنفسك . فـما أمرك بمهم لغيرك ولا تضـيعى أوقاتك . فالأنفاس معدودة . فـإذا مضى منك نفس ، فقد ذهب بعضك . فاغـتنمى الصحة قـبل السقم . والفراغ قـبل الشغل . والغنى قبل الفقر . والشباب قبل الهرم .و الحياة قبل الموت . واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها .

---

(١) العاقل وإدانة النفس :اتهامها بالتقصير لتزداد من فعل الخيرات .

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الترمـذى (٢٤٦١) وأحمد (١٢٤/٤) والطبرى فى الكبير (٣٣٨/٧) والبيهقى (٣٦٩/٣) والبغوى فى شـرح السنة (١٤ /٣٠٩) من حديث شداد بن أوس -رضى الله - مرفوعًا .

يا نفس . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته . فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير (١) جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى . هيهات . كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة (٢) والنار ، وسائر الأسباب .

---

(١) الزمهرير : شدة البرد

(٢) بالجبة والنار : يلبس الثقيل والسملك من الثياب ليتقى بها من البرد وكذلك بالتدفئة .

فـلا يندفع حـر النار وبردها إلا بحـصن التـوحـيـد وخندق الطاعات .وإنما كرم الله تعالـى فى أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه . لا فى أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كـما أن كـرم الله تعـالى فى دفع برد الشتـاء أن خلق النار وهداك لطريق استـخراجـهـا من بين حـديدة وحجـر . حـتى تدفـعى بهـا برد الشتـاء عن نفـسك . وكـما أن شـراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك . إذ خلقـه سبـبـا لاستـراحـتك . فطاعاتك ومـجـاهداتك أيضًا هو مستغن عنها: وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس ! .

انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحـدة . وكما بدأنا أول خلق نعيـده ، وكما بدأكم تعـودون . وسنة الله تعـالى لا تجـدين لهـا تـبـديلا ولا تحويلا.

ويحك يا نفس ! .

ما أراك إلا ألفت الدنيا . وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها

وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها . فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، أفما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟ .

أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد نظره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته . أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ .

أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك . وما لك فيها إلا مجاز (١) ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « إن روح القدس (٢) نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مجزى به . وعش ما شئت فإنك ميت » (٣) .

---

(١) أى عبور الطريق وقطعه

(٢) هو جبريل عليه السلام ونفث : أى أوحى فى نفسى .

(٣) إسناده ضعيف :

قال العراقى فى تعليقة على الإحياء (٨٨/١) رواه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ! .

أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ؟ .

أو ماتنظرين إلى الذين مضوا : كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداء هم ؟ .

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون مالا يدركون ؟.

يبنى كل واحد قصراً مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض .

فهل فى الدنيا حمق وانتكاس (١) أعظم من هذا؟

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا أما تستحين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟.

---

(١) وهل فى الدنيا إلا خيبة وخسران لمن لم يتخذ الإسلام منهجًا

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين (١) على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك ، إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبًا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟ .

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد من على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك :

---

(١) غير المفارقين لها .

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (١) ؟.

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ ! هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض . سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب . كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك (٢) ، بل أمر دارك ، فضلاً عن محلتك. ؟

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها . وتنزهًا عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ؟ . أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ . وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأفٍ لدينا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! .

فما أجهلك ، وأخسَّ همتك و أسقط رأيك ، إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى

(١) فليس لهم ذكر ولا سيرة والركز : الصوت الخفى .

(٢) المحلة : المنزل .

جوار رب العالمين ، أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل ، فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! .

فبادرى ويحك يا نفس . فقد أشرفت على الهلاك . واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها ، لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية ، وأصررت على عادتك ؟ .

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر (١) بين يديك ؟ .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا (٢) على أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة

(١) الفزع الأكبر : يوم النشور يوم البعث والعرض الأكبر

(٢) أقسموا وحلفوا .

أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت فى أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟ .

ويحك يا نفس ! .

أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم ؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ، ويحك .

أهو أهون الناظرين عليك ؟. أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ . أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة(١) وأن العذرة لا تطهر غيرها ،فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ .

ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا

(١) ما يخرج من دبر الإنسان .

تعجبين بعملك، وفيه من الآفات مالونجوت منه رأسا برأس (١) لكان الربح فى يدك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة ، بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصى ! . ويحك كم تعقدين فتنقضين (٢) ، ويحك ، كم تعهدين فتغدرين .

ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا : جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً (٣) وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ويحك يا نفس ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ . هيهات

(١) الكفتان متساويتان لا لك ولا عليك .
(٢) تؤكدين العهد والميثاق ثم لا تفين من ذلك .
(٣) عمارات شاهقة .

هيهات، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى (١) ، أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه . وبشرى بالعذاب ؟ . فهل ينفعك حينئذ الندم . أو يقبل منك الحزن . أو يرحم منك البكاء ؟ .

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟.

ويحك يا نفس ! تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من مستقبلٍ يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

---

(١) وهو كناية عن خروج الروح .

الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره فى الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين أمام الله وبأى لسان تجيبين . وأعدى للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، و فى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود .

اعملى قبل أن لا تعملى ، واخرجى من الدنيا اختياراً خروج الأحرار ، قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا إعتباراً ، وسعيك لها اضطراراً (١) ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة

---

(١) أى يكون السعى قدر الحاجة والكفاف .

ابتداراً (١) ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .

واعلمى يا نـفس أنه ليس للدين عـوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيـته الليل والنهار ، فإنه يسار به وإن لم يسر .

---

(١) مسارعًا ومسابقا .

العلاج

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له .

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنو كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طريق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ؟

وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة (١) ، فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء ، واستغيثى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الاستغاثة ، ولا تملى طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل . فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجى إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لانه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ،

---

(١) نزول الدمع : دليل على التأثر والرحمة

والمسئوول جواد ، والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض والعفو شامل .

وقولي : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم ياعظيم يا كريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق ، فعجِّل إغاثتي وفرجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك ، يا أرحم الراحمين » اهـ .